الفصل الرَّابع

أوقف "فايز" سيارته المرسيدس على أطراف الضَّاحية المنعزلة عن صخب المدينة.

وسيمًا كان. أنيقًا كان.

وبخطوات رشيقة توجه إلى بيت صغير, رث الهيئة, يتكون من دورين اثنين, منزوي بين بيوت متاخمة لا تقل عنه بؤسًا وفقرًا. كبس الجرس المجاور لبوابته الحديدية الصَّدئة المتآكلة, وانتظر حتى آتاه صوت صديقه وزميل دراسته القديم "حسام", قادمًا يتقافز في عجل.

تعانقا, ومن ثمَّ قال "حسام" مداعبًا:

- مرحبًا بالثَّوري الاشتراكي, مرحبًا بكارل ماركس العرب.

لكزه "فايز" في كتفه, وقال:

- أهلًا بالإسلامي الهمام.

جذبه "حسام" في ود:

- ما رأيك في كوب شاي من يد السِّت أم "حسام".

نظر "فايز" في ساعته عَجِلًا:

- كنت أريد فعلًا أن أسلم على السِّت الوالدَّة, ولكن للآسف لا وقت, باقي ساعة على موعد الاجتماع, والطَّريق وسط البلد مختنق الآن.

البيت لا يبتعد كثيرًا عن القصر, ولكن "فايز" يؤثر دائمًا أن يمر ليأخذ "حسام", لا أن يأتي "حسام" إليه في القصر. دائمًا ما يشغله الحذر من جرح مشاعر صديقه, وقد كان ذلك يدفعه ليفكر كثيرًا, قبلما يقدم على أي تصرف, مهما بدا بسيطًا صغيرًا.

وفي هذا البيت المعدم البائس, كان لفايز مع صديقه صولات وجولات, منذ

سنوات عديدة فاتت؛ ففي حجرة "حسام" الصَّغيرة, المطلة على الشَّارع, كانا يتذاكران الدَّروس, وعلى السَّطح كانا يراقبان النُّجوم المتلألئة, والقمر في منازله, ويطعمان حمام الغية, وفي حديقة المنزل الخلفية, والتي لا تتجاوز مساحتها عدة أمتار مربعة, غرسا العديد من أشجار الرَّيحان والورد البلدي, قد أحضرها "فايز" من حديقة القصر.

الفجوة الاجتماعية الهائلة, واختلاف النَّشأة العميق بينهما, لم تمنعا هذه الصَّداقة الغير متكافئة من أن تنمو وتزهو وتزهر. تعارفا الشَّابان, وهما على أعتاب الجامعة, في مكتب التَّنسيق. كان الزَّمان شابًا, والأفكار غضة, ولم تكن قد تبلورت بعد رؤية أحدهم في الحياة, مجرد إرهاصات هلامية غامضة.

الشَّابان اليافعان جمعتهما الصَّداقة البريئة فحسب, بلا حسابات, أو تعقيدات, أو أي من تلك الأمور التي قد تختر بالبال. صداقة عفوية جميلة, أحدهما يرتدي قميصًا كحليًا وحيدًا, يغلق جميع أزراره حتى تفاحة آدم البندولية المتأرجحة, على رقبة نحيفة بارزة العروق, من شدة نحافة صاحبها, تبدو أطول من اللَّازم. والآخر يأتي الجامعة كل يوم بحلة فاخرة مختلفة, وسيارة مرسيدس آخر موديل, يقودها سائق أسود اللَّون, يرتدي زيًا مخصصًا لمهنته, تشير لكونه سائقًا خاصًا لأسرة عريقة.

لم يكن يخطر ببالهما؛ لسذاجة عقليهما وبراءة قلبيهما, أنَّه ثمَّة فارق شاسع بين الطَّبقتين التي ينتميان إليها, وأنَّ البون شاسع بين هذا وذاك, وأنَّ في الصَّورة نشاز يلفت النَّظر ويثير السُّخرية, في مجتمع أشد ما يثير حفيظته وقلاقله, ويفتح مجرى للحديث والتَّساؤل لا يفتر؛ هو التَّداخل بين الطَّبقات, واختراق التُّخوم بين الغنى والفقر. مجتمع في عرفه؛ الغني سيد, والفقير خادم, أمَّا أن يختلط الحابل بالنَّابل فهذا مربك, ولابد له من حيثيات.

عندما تقدم "حسام" في السِّن, ولطمته الحياة بالحقائق, وبخريطة الجينوم البشري للطبقات وأصناف البشر في مصر, أصابه العجب من بساطة صاحبه, وصارت نفسه تحدثه همسًا؛ أنَّه ثمَّة حماقة وعته في هذه الصَّداقة, وأنَّ الحياة بقسوتها وعنتها, مستحيل أن تكتب لها أن تستمر وتستقيم, ويومًا لابد أن تتقوض وتنفض, لتغدو ذكرى عجيبة كما فترات المراهقة الرَّعناء.

"فايز" لم يخطر له يومًا أن يقارن, أو يفكر جديًا في الأمر, كان يعيش في تلك الحالة العدمية المفرغة من الاعتبارات والقوانين والأعراف التي تشغل بال البشر, ربما نظرات أمه المتعجبة, إذا ما لمحت طيف "حسام" بهيئته البسيطة المتقشفة, هي ما كانت توقظ غفوته وتلفت انتباهه, وتزعق في وعيه الغائب؛ بأنَّ في الصُّورة نشاز فج لا تراه عينه السَّاذجة. امتعاض أمه البادي بلا أدنى محاولة للإخفاء, قطب جبينها, ضيق عينيها؛ كل هذا السَّيل المنهمر من ردود الفعل لرؤية "حسام" كان يرجه كصدمة كهربية مفاجئة, ويجعله يتعجل الانسحاب بصديقه عن مرمى النَّار الشَّرس, يجاهد ليحمي عفوية الصَّداقة وبراءتها من وابل رصاص "الوعي" المنهمر.

ولمَّا شب العقل, وتبلورت الأفكار والاتجاهات, تكشف للجميع أنَّ "حسام" ذو الجذور الضَّاربة في العوز والفقر, والذي بالكاد تسير به سفينة حياته في مجرى الأيام, قد ارتدى ثوب الإسلاميين, وصار عقله وقلبه يفوران ويشتعلان بأفكار "الجماعة", يضع مبادئها وأهدافها نُصب عينيه. وأنَّ "فايز" الأرستقراطي الثَّري, قد خالف مسار العائلة العريق, صاحبة الجاه والغنى, وتحول للاشتراكية كفكرة تأثر لها غاية التَّأثر, وغدت كل حياته ومآله.

كانت رؤى الشَّابين, واتجاهاتهما, وأفكارهما, تتضح رويدًا عبر سنوات الدِّراسة الأربع في كلية التِّجارة جامعة القاهرة, لتصبح في العام الرَّابع والأخير من الجامعة, متبلورة, ساطعة كشمس لا تعرف غروب.

شغف "حسام" ب"الجماعة", لم يعد مجرد حماسة وتوهج عاطفة, فلقد تحولت العاطفة إلى حقيقة ضربت بجذورها في قلب الشَّاب وحياته, ولم يكن للجماعة أن تُفوّت فرصة الاستفادة من فورة شبابه وحماسته, فصارت توكل إليه مهام استقطاب شباب الجامعة لحظيرة "الجماعة", والاستعانة به للحشد في الانتخابات الطُّلابية. تحول "حسام" لترس هام, وعنصر عامل فعال, لا مجرد معجب متعاطف فحسب, وعبثًا حاول ضم "فايز" لمظلة "الجماعة", وإثناءه عن أفكاره الاشتراكية, التي تعلمها على يد كارل ماركس ولينين, من كتب المكتبة العتيقة الرَّابضة في جوف القصر, والموروث بعضها عن أبيه "معتز", وبعضها من تراكمات الجدود الأقدمين.

وحدث أمر عجيب بين الصَّديقين, فقد كان من المفترض أن يكون هذا الاختلاف الفكري سببًا جديدًا يؤازر الفجوة الاجتماعية المتسعة والعميقة والموجودة سلفًا, لينفض كل شيء ويتبدد, ويذهب كل منهما إلى حال سبيله, ولكن شيئًا من هذا لم يحدث, شيء ما جعل العكس ما يحدث. فكرة أتت "حسام" تحديدًا, وصبر عليها في أتون عقله, يقلبها ويغذيها, حتى نضجت واكتملت, وصارت مثل رغيف الخبز مكتمل الاستدارة والنَّضج كما البدريغري الآكلين.

فكر "حسام" أنَّه وإن فشل في ضم "فايز" إلى "الجماعة", فما المانع أن تتلاقح الأفكار بين الاتجاهين, وتتمخض عن منطقة وسطية, تتلاقى فيها أفكار "الجماعة" الرَّابضة في عقل "حسام", مع أفكار الاشتراكية المعششة في عقل "فايز".

يومئذ قال ل"فايز" مزهوًا باكتشافه المبهر:

"العدالة الاجتماعية, والحياة الكريمة, والمساواة, والعدل, هي العوامل المشتركة, ونقاط التَّلاقي, بين الفكر الإسلامي والفكر الاشتراكي, أنا وأنت نسير على دربين مختلفين, ولكنَّ الهدف واحد".

في قلب "حسام", يأنف فقره وحاله المعسر, وعقله الباطن في حالة بحث دائم عن بديل, ينفخ من خلاله بوق الاحتجاج, ويفضفض بأنَّات الألم؛ فكانت "الجماعة" التي مدت ذراعيها تحتضنه بكل شوق ولهفة.

و"فايز" في دخيلته, يستكثر ما هو فيه على نفسه, وأنَّه لم يُقدم لنفسه ولم يؤخر, ولكنَّه خرج إلى الحياة ليجد هذا الرَّغد, وهذه الحياة الزَّاهية بالنَّعيم والثَّراء, ما جعله دائمًا يفكر, أنَّه ثمَّة مساواة يجب أن تتحقق لتسود المحبة الحقيقية بعيدًا عن التَّجمل والاصطناع, في هذا العالم المكفهر بالعنف والحقد والكراهية. الطَّبقية, وما فيها من فروق هائلة وضغينة مبيته بين الطَّبقات, يقينًا يظنها "فايز" أصل البلاء, وأنَّ الحلول الجذرية تكمن في الوصول لحالة من التَّقارب, وتقليص الفجوات الهائلة بينهم.

وفكر الاثنان مليًا في أمر التَّقارب والتَّلاقي, ووصلا لنتيجة واحدة؛ أنَّ التَّعدد يُثري, وسلك الدُّروب المختلفة لا غبار عليه, ما دامت الغاية واحدة.

وقال "حسام" مؤكدًا: ""الجماعة" من الانفتاح واتساع الأفق لأن تتقبل الآخر"، وقال "فايز" في نفسه أنَّ الإسلام في جوهره اشتراكي، يحث على التَّكافل الاجتماعي في أكثر من موضع، وما الزَّكاة التي هي ركن أصيل من أركانه الخمس إلا شكلًا من أشكال التَّكافل، والصَّدقة النَّافلة هي أيضًا سبيل من سبل التَّكافل، فالعدالة الاجتماعية التي تسعى إليها اشتراكية ماركس هي ذاتها العدالة التي يسعى إليها الإسلام، البُغية واحدة، الاختلاف في الشَّكل فقط، ولن يضيره إن ارتدت قميصًا وبنطالًا أو ثوبًا أبيضًا ولحى، ولن يضيره أن تتحقق باشتراكية كارل ماركس أو بقال الله وقال الرَّسول.

يومًا فضفض "فايز" لأمه "جيهان" بأفكاره هذه، فهالها ما سمعت، ونظرت في عينيه مليًا، تتأكد من جدته، ثُمَّ نعتته بالعبث والجنون والحماقة، وأنَّه أخيب من أنجبته العائلة هو وأبيه "معتز"، وصارت عيناها تندب حظها التَّعس، كلما رأته برفقة صديقه الأثير "حسام"، ببدنه النَّحيل المعدم، وتفاحة آدم المتراقصة كما بندول لا يهدأ.

"فايز" يستطيع ضغط نفير سيارته المرسيدس، ينبه "حسام" للقدوم، دونما يترجَّل بنفسه من السَّيارة، ولكنَّه لم يُرد أن يستخدم من وسائل رفاهيته الغارقة في الفخامة والثَّراء أداة لتنبيه صديقه الغارق في الفقر والعوز. يستشعر في دخيلته، أنَّ العاطفة الإنسانية وإن جمعتهما، فقد وضعتهما أيضًا في منطقة حرجة شائكة، لن تكون بمنأى عن مناوشات الغنى والفقر، وأنَّ فكرهما، وإن تلاقح وتقارب، ورغم إيمانهما الشَّديد بالمعتقد، وحماسة الشَّباب التي تجري بكل العنف في عروقهما- فلن يعدو كل هذا عن كونه بلسمًا ملطفًا، قد يُسْكِّن الجُرح، ولكنَّه أبدًا لن يُطببه.

وانطلقت السَّيارة المرسيدس بالصَّديقين، تنهب الطَّريق إلى الاجتماع السِّري الأول، الَّذي يضم للمرة الأولى في تاريخهما، أعضاءً من الحزب الاشتراكي المنتمي إليه "فايز"، وأعضاءً من "الجماعة" المنتمي إليها "حسام".

***

شقة "ياسين" صغيرة, تقبع أعلى عمارة نائية متهالكة, مكونة من حجرتين صغيرتين, ملحق بهما حمام صغير, ومطبخ. والوقت ليل, والظُّلمة حالكة, يحوم في المكان قط أسود, أكثر حلوكًا من اللَّيل, يموء مواءً مفزعًا حادًا, تقشعر منه النَّفس. حينها "ياسين" يغط في نوم عميق, شخيره مرتفع, يحاور ابنته "طاهرة" في حلم لا ينفك يأتيه كل مساء, يحاول جاهدًا أن يثنيها عن الطَّريق الَّذي تسير وأودى بحياتها, وهي الزَّهرة الجميلة في ريعان الشَّباب. قد أضاء نور الحجرة كعادته؛ فهو بطبيعته يخشى الظَّلام.

طرق عواء القط المزعج أذنيه, هاجم بشراسة النُّعاس عنكبوتي الأذرع, والحلم النَّابش في القلب, المعشش في ثنايا العقل. تململ العجوز وفتح عينيه, وانبرت الغشاوة تنقشع عن الذِّهن المستسلم لسطوة الحلم, يتملكه كثير حنق وتأفف. أمسك عصا, وانفلت من السَّرير مغتاظًا, يطارد القط الدَّخيل على المكان. هذا الأمر لم يحدث من قبل, بهذا الشَّكل اللَّافت, أحيانًا تصعد القطط إلى السَّطح طمعًا في قطعة سمك, أو شيئًا من مرقٍ وأرز, ولكنَّها تموء مواءً خافتًا لطيفًا, تتمسح في رفق وتملق, وليس بهذه الحدة, وهذا العنف, كما يفعل هذا القط الغريب سلوكًا وهيئة. كما أنَّ "ياسين" ليس لديه من الطَّعام ما يُعد مطمعًا لهذا المتطفل, بالتَّأكيد روائح الفول والطَّعمية ليست ما حفزته للقدوم, منذ مقتل "فايز" وهو يعاني ضيق ذات اليد, ويعيش على أمل عودة الوريث الوحيد, من الخارج حيث يحيا, ويعطيه أجر ما فات.

و"ياسين" يحرس القصر نهارًا, ولا يقدر على النَّوم به ليلًا, وإن كان بيت الجنايني, لديه يقين قديم, منذ وجود "فايز" حيًا يرزق, يجعله قلقًا مستريبًا تجاه القصر, فيظن أنَّ الأشباح تنسل إليه, منذ الغروب إلى قبيل الشُّروق! ويجنح به التَّفكير؛ أنَّه بخلوه من قاطنه الوحيد, "فايز" الَّذي مات, قد صار ملاذًا آمنًا, تعتكف الأشباح بين ثنايا ظلمته ليل نهار, وبعينيه رأى ذات صباح قريب أحدهم بنفسه, تلك السَّيدة منسدلة الشَّعر, قمرية الوجه.

خرج "ياسين" بالعصا, يبحث ضجرًا, عن القط الَّذي همد صوته المزعج, وعمَّ الهدوء. وعندما ضاق ذرعًا بالبحث, وهمَّ راجعًا, أفزعه وجود شخص بدين, صاحب كرش كبير ممتد, يقف في الزَّاوية الأشد عتمة! ومع عدم وضوح

المعالم, تعرَّفه العجوز فورًا؛ إنَّه الشُّرطي الَّذي لم يصدقه في مزاعمه عن المرأة الجميلة, والتي ظهرت وتبخرت من نافذة المكتبة, وحذره وتوعده بالحبس, إذا ما حدثه ثانية في هذا الشَّأن.

بادره الشُّرطي بالقول, دونما يتحرك قيد أُنملة:

- رأيت بأم عيني.

ظُلمة اللَّيلة حالكة, هي آخر ليال الشَّهر العربي, لا قمر ينير السَّماء, وبالبعيد مجرد نثار نجوم باهتة هنا وهناك, والجو خانق بالحرارة والرَّطوبة, لا نسمة تُلطف, رغم أنَّ الوقت تجاوز منتصف اللَّيل. وبدا "ياسين" لوهلة غير مستوعب ما يدور, وأخيرًا سأل, بصوت خرج مشروخًا من أثر النَّوم:

- رأيت ماذا؟!

"ياسين" بالكاد يستبين معالم الشُّرطي, قد ظل معطيًا جانبه للكهل, موليًا وجهه شطر المدينة الصَّامتة الهاجعة بالأسفل, والممتدة على مرمى البصر حد تخوم الصَّحراء.

هز الشُّرطي كتفيه المكتنزين, وأجاب:

- الشَّبح! المرأة قمرية الوجه! ذات الشَّعر المنسدل!

فهم "ياسين" الأمر برمته, تمتم في مزيج من الذِّهول والفرح, منعقد الجبين, منفرج الشِّفاه:

- حقًا!

أومأ الشُّرطي برأسه مؤكدًا, وأردف:

- كانت تنظر من ذات النَّافذة!

- نافذة المكتبة!

- نعم!

وخيم الصَّمت بلا سبب معروف ل"ياسين", وظل الشُّرطي محتفظًا بموقعه, ينظر أبنية المدينة المسكونة بالموات حينًا, والسَّماء الحالكة أخرى, وظهر وكأنَّ الأمر يستغرقه جدًا.

"ياسين" يزوي ما بين حاجبيه الكثين, ينتظر أن يستطرد الرَّجل, وعندما طال صمته, قال "ياسين" يستدرجه ليُكمل, وعيناه ضاقتا أكثر:

- ثُمَّ؟!

استدار الشُّرطي, يواجه "ياسين" للمرة الأولى, لا يفصل بينهما سوى سنتيمترات قليلة, وأخرج صوتًا فهمه "ياسين" فورًا, يشير بيديه علامة التَّلاشي والاختفاء, وقال:

- اختفت!

شعر "ياسين" برعشة تجتاحه, وشيء من رهبة عندما ومضت عينا الشُّرطي, رغم الظُّلمة الحالكة. طرح ما اعتراه سريعًا, وقال متأنيًا يريد التَّأكد:

- تقصد ذهبت!

هز الشُّرطي رأسه نفيًا, فبدا وميض عينيه مثل بندول ساعة متأرجح, وقال:

- لا!

واستطرد, مشيحًا بيديه:

- اختفت! تبخرت! وكأنَّها لم تكن!

مد "ياسين" يده, يمسك معصم الشُّرطي العالقة في الهواء, وارتفع صوته يهدر:

- هل صدقتني الآن؟! هذا ما رأيت أنا أيضًا بأم عيني! في الصَّباح القريب الباكر! اختفت! تلاشت! كأنَّها لم تكن!

هز الشُّرطي رأسه وصمت.

فجأة انتفض "ياسين", سحب يده من معصم الشُّرطي العالق في الهواء, تجتاحه رعشة عنيفة, ارتعد لها البدن النَّحيل. ملمس المعصم غير طبيعي, وكأنَّه قطعة إسفنج, شيء رخو هلامي! شهق "ياسين" وتراجع للخلف, فاغرًا فاه!

استدار الشُّرطي, يُعطيه جانبه مجددًا, وعكف يتابع الأضواء الباهتة المنبعثة من نثار النُّجوم, ثُمَّ قطع الصَّمت المتوجس, يسأل بصوت هادئ عميق:

- ما بك؟!

تمتم "ياسين", يتراجع خطوة أخرى للخلف:

- لا شيء!

وتذكر أمرًا, فقال يسأل, مُضيقًا ما بين حاجبيه:

- لماذا كان ذهابك للقصر؟! لقد توعدتني ونهيتني عن الخوض في هذا الموضوع!

أجاب الشُّرطي بتمهل من سيُدلي باعتراف خطير:

- إصرارك على ما تقول, جعل الأمر لا يبرحني, وجدت نفسي غارقًا في التَّفكير رغم الغرابة! وتملكني الفضول! فرحت أجول حول القصر في الصَّباحات الباكرة لعلي أرى ما يؤكد مزاعمك!

بصق "ياسين" لُعاب القلق جانبًا, وسأل:

- وتأكدت؟!

استدار الشُّرطي, خطي خطوة تجاه "ياسين" المتحفز, وهمس:

- بأم عيني!

تراجع "ياسين" خطوة, مقدار ما خطي الشُّرطي, وسأل متوجسًا:

- احك بالتَّفصيل؟!

- كما رأيت أنت بالضَّبط! في هذا الصَّباح رأيت السَّيدة الجميلة كالقمر, تطل من نافذة المكتبة!

فرقع بإصبعيه, مُردفًا:

- ثُمَّ اختفت! تلاشت! تبخرت!

اندفع "ياسين" يقول, ناسيًا مخاوفه:

- هذا القصر غريب! ليس اليوم, ولا أمس, ولكن منذ...

انتصب الشُّرطي مرهف السَّمع, كله أذان صاغية, تومض عيناه أكثر, ما استرعى انتباه العجوز رغم انفعاله؛ فصمت.

قال الشُّرطي بصوت خشن, يستنطق "ياسين" ليفضفض بما لديه:

- أكمل.. تكلم!

لهجة الشُّرطي صارمة مخيفة, لم تدع للعجوز فرصة للتراجع, فقال أخيرًا ملقيًا قنبلته:

- منذ قتلت زوجته ليلة الزِّفاف!

عقد الشُّرطي ما بين حاجبيه الكثين بشدة, واقترب من وجه "ياسين", لدرجة أرعبت العجوز وأشعرته بالخطر, وسأل بصوت ماج بالانفعال الشَّديد:

- هل كان "فايز" متزوجًا؟!

أومأ "ياسين" برأسه دونما كلمة. سأل الشُّرطي:

- من كانت زوجته؟! وكيف قتلت ليلة الزَّفاف؟! ومن قتلها؟!

ارتفع صوت على الدَّرج الصَّاعد للسطح, جذب العجوز عن الإجابة, ولمع عمود ضوء يتخبط في الظَّلام, لشخص يتلمَّس الخطى. تنفس "ياسين" الصُّعداء, في حين قال الشُّرطي, يُغالب انزعاج شديد وحنق:

- للحديث بقية!

بدا الشُّرطي متعجلًا, بلا سبب معلوم, وهو الشَّغوف بمعرفة ما لدى "ياسين". الصَّاعد هو ساكن الشَّقة السُّفلية, الموجودة أسفل شقة "ياسين", جاء يستطلع ضجة "ياسين". وقال يسأل "ياسين" ضجرًا, فيما يفرك عينيه المنتفختين من أثر النُّعاس:

- ماذا بك هذا المساء يا رجل؟!

وحامت عيناه في المكان على ضوء "الكشاف" الَّذي يحمل:

- لماذا تحدث نفسك مثل المجانين؟!

أجاب "ياسين" شارد الذِّهن:

- كنت أتحدث مع الشُّرطي الَّذي قابلك على الدَّرج.

أشاح الرَّجل يديه عجبًا:

- أنا لم أسمع سوى صوتك وضجيجك! كما أنَّني لم أقابل أحدًا! هل جننت يا "ياسين"؟!

***

"فايز" خلف المكتب العتيق بالمكتبة, رشف من فنجان القهوة, تاه بصره في فراغ الحجرة, وعمَّ الصَّمت. "جيهان" المبحلقة فيه لا تتعجب حالات شروده, الشِّرود صفة لَصِيقة بابنها منذ نعومة أظافره, تخاف عليه كونه ينظُر الحياة نظرة رومانسية حالمة, وتخشى عليه التَّصادم مع القبح الرَّابض فيها, رغم عمره الثَّلاثيني, الَّذي من المفترض أن يمنحه فائضًا من الحنكة, يجنبه ويلات الحياة, ويريح قلبها.

رشفت رشفة من القهوة بدورها, وسألت:

- ما بك؟

أراد طرح مخاوفه ويفضفض, ولكنَّه تذكر الهوة الواسعة بينهما, وحتمًا سينتهي الأمر بتعنيف الأم, السَّاخطة من أفكاره, الجزعة عليه دومًا.

هز "فايز" رأسه وأجاب:

- لا شيء.

لمعت ابتسامة هادئة على الوجه العبوس, لم يخلو بعد من مسحة جمال, وتلونه بعض المرارة, وضحكت ضحكتها الوقورة, وقالت:

- دائمًا لا تُريحني بإجابة.

ابتسم "فايز" بدوره, ولم يجد ما يقول.

دقت ساعة القصر, تعلن تمام العاشرة مساءً. قالت "جيهان", ترتكز على ركبتيها لتنهض:

- السَّاعة أنقذتك. موعد النَّوم.

للحظات تسمَّرت في موضعها, كلاب مسعورة تنهش ركبتيها, الرُّوماتيزم على أشده هذه الأيام. طفرت الآلام من عينيها؛ هب "فايز" للمساعدة, توجها إلى حجرتها المجاورة للمكتبة. وبعدما هجعت في الفراش, دثرها جيدًا, وأطفأ المصباح, وغادر.

تموضع مجددًا خلف المكتب, وعاوده السُّهوم, ورجع القلق يناوشه. "فايز" يشعر بالمسئولية لكونه صاحب فكرة التَّلاقي والتَّحالف بين قطبي المعارضة. المعارضة الكرتونية الواهنة المتمثلة في حزبه الاشتراكي, والمعارضة الدُّودية العاملة أسفل الأرض والمتمثلة في "الجماعة". ورغم أنَّ الكثيرين من شباب الحزب تحمَّسوا للفكرة, غير أنَّ فريقًا آخر ضم عجائز الحزب من ذوي الخبرة والنَّظر النَّافذ, تخوفوا من هذه المشاركة الفريدة, وهذا التَّحالف الغير مأمون العواقب مع "الجماعة".

منذ البداية, و"فايز" لا يُعوّل على عجائز الحزب, وتوقع أنَّهم لا محالة واقفين في وجه الفكرة بالتَّخوف والقلق والاعتراض, ويرى أنَّ النَّظرة الثَّاقبة المزعومة, ودربة الحياة, وحنكتهم السِّياسية الطَّويلة- كلها أشياء تجتمع في عين التَّرويض

والسَّلبية والوقوف محلك سر, وأنَّه ثمَّة تواطؤ خفي بين إرادتهم وإرادة السُّلطة الرَّأسمالية الحاكمة! هي ليست الخيانة للمبادئ بالشَّكل الواضح الصَّريح, ولكنَّها سطوة القوي على الضَّعيف, والسَّيد على العبد, والإملاء غير المكتوب من أصحاب البطش والسُّلطان على أمثالهم من الخاضعين الخانعين. عرائس "ماريونيت" تتحرك لتأدية دور, بلا إرادة حقيقية, يراهم المرء على منصة الحزب يصخبون ويشجبون, في حين أنَّهم لا يملكون من أمرهم شيئًا, فدورهم المنوط بهم, يتطلب هذا الشَّجب وهذا الاعتراض, لتبدو الصُّورة, وكأنَّه بالبلد ثمَّة سلطة ومعارضة حقيقيين, وأنَّ الممارسة السِّياسية مكتملة الأركان! مسرحية يشاهدها النَّاس منذ سنين طالت, وهم يعلمون يقينًا, عمق الكذب والادعاء الكامن بها! والنَّاس يكتمون أوجاعهم ويصفقون, فقط من أجل جماليات الصُّورة, واكتمال أركان المشهد! وهذا يجعله يرى الشَّعب المقهور جزءًا لا يتجزأ من الصُّورة القميئة, وأنَّه هو الآخر لم يسلم من التَّواطؤ مع السُّلطة الغاشمة! السُّلطة الدَّيكتاتورية الغاشمة تصنع حالة من النِّفوذ العام, عنكبوت جبار يحقن الشَّعب بمادة مخدرة؛ يشل فيهم عصب الإرادة, ويعلقهم شرانق لا حول لهم ولا قوة! مغناطيس ديكتاتوري يحرك بكل الرَّغبة بُرادة الحديد المستكينة الخاضعة لقواه الطَّاغية الجبارة.

وأبشع ما يفعله الظُّلم بالإنسان هو "التَّعود"! التَّعود على الظُّلم كمفردة حياتية مُسلَّم بوجودها, لا كعنصر شاذ دخيل, يحتاج أشتات المقاومة لرفع نيره الجاثم فوق رقاب العباد.

ويظن "فايز" أنَّه لا أمل, ما دام الأمر سائر على هذا المنوال, وفي ذات الطَّريق, لا يحيد ولا يتغير قيد أُنملة! فالحراك الحقيقي يحتاج صحوة, لنفير جبار يزعق في سياسي المعارضة وعوام الشَّعب على حد سواء, لينتفضوا من حالة الخنوع, وكونهم مصلوبين تماثيل شمع! يحتاج لدماء جديدة, لم تروضها الحسابات الضَّيقة بعد, ولا تخضع لجبروت إملاء السُّلطة, لا يحركها غير الضَّمير والإحساس بأوجاع الوطن. التَّغيير الحقيقي يحتاج لقلب فوار, ممتلئ بالحماسة والحب, يقدر أن يحرك سفينة الوطن من بركة مياه المصالح الضَّحلة, إلى مجرى النَّهر الضَّارب في عمق الشَّعب.

من ناحية أخرى, "فايز" يخاف أن تطمس الحماسة عين البصيرة, وأنَّ الحراك غير المدروس, رُبما ينقل السَّفينة من ضحالة المياه إلى عمق الوحل, حيث لا مفر من الفشل التَّام.

كان الاجتماع الحزبي المغلق, الَّذي ناقش أمر التَّحالف مع "الجماعة" قد مر عليه ما ينيف عن الشَّهر, وما كاد "فايز" يفرغ من أفكاره ويقرر الذهاب للنوم, حتى ارتفع طرق حاد على بوابة القصر الدَّاخلية, طرق مفزع, وعويل سيارة شرطة مذعور, ووميض أحمر متقطع يلتمع من نافذة المكتبة.

لحظات وكان رجال الأمن معه بالقصر, يأخذوه دونما كلمة, ودونما يغير ملابسه.

obeikandl.com